لقد أدّينا واجبنا تجاه قضية السلام

وعلى العالم كله أن يبذل جهوده لإنقاذ السلام

بقلم : صبرى أبو المجد

قضيت اربعة عشر يوما فى زيارة خاطفة الى المانيا الاتحادية ، كانت اول زيارة لى الى تلك الدولة الاوربية ، ذات الصلات الوثيقة القديمة بمصر والعالم العربى .

وبالرغم من مرض قاس مفاجىء ، وبالرغم من عملية جراحية اجريت لى فى « شتتجارت » .. الا اننى اجريت لقاءات عديدة ومكثفة ، مع عدد غير قليل من كبار الصحفيين الالمان . ومع عدد غير قليل من اعضاء مجلس البرلمان الاتحادى « البوند ستاج » والبرلمانات الاقليمية وقيادات الاحزاب الالمانية .. سواء تلك التى تحكم المانيا ، أو تقف فى المعارضة .

وانت فى المانيا ، تحس بانك فى قلب اوربا .. ان لم تكن فى قلب العالم كله ..

هناك تستطيع وبسهولة ان تقرا فى نفس اليوم كل الصحف الصادرة فى اوربا وامريكا ، كما تستطيع ان تستمع الى كل اذاعات العالم ماعدا الاذاعات العربية بالطبع ، وترى فى التليفزيون وبالصورة الملونة غالبا .. احدث اخبار العالم .

وانت فى المانيا ، تستطيع ان تتصل بكل دول العالم ، وان تعرف كل ما تريد معرفته عن دول العالم .. الا عن بلدك . !

فانت لا تستطيع ـ وبكل اسف شديد ـ ان تقرا الصحف العربية ، والصحف المصرية بوجه خاص ـ اذا قرأتها على الاطلاق ـ الا بعد ايام كثيرة من صدورها . بل انك عندما تريد ان تعرف اى خبر جديد عن بلدك ، وتتصل بسفارتك ، لا تستطيع ان تجد احدا فى هذه السفارة ، ولمدة ايام ، لانها فى الغالب « مغلقة للتحسينات » .. او بسبب الاجازات ، او بسبب عدم وجود اى مسئول قادر ، حتى على ان يرد على اى تليفون .

خلال الاربعة عشر يوما التى قضيتها فى المانيا الاتحادية متنقلا فى كل اقاليمها بالطائرة والقطار ، والسيارة ، قارئا لمعظم صحف العالم ، مستمعا الى كثير من اذاعات اوربا وامريكا ، متحدثا الى كثير من القيادات الصحفية والسياسية ، بل والى كثير من افراد الشعب الالمانى .. رجالا ونساء ، عمالا وفلاحين ومثقفين .. خلال الاربعة عشر يوما تستطيع ان تجد فى معظم ما تقرؤه وما تسمعه معا اجماعا لا مثيل له ، على ان مبادرة الرئيس السادات للسلام ، قد هزت الوجدان العالمى ، والوجدان الالمانى بصورة خاصة ، الى حد لم يحدث من قبل ، وبصورة لا مثيل لها فى التاريخ الحديث .

ان شعب المانيا ، مثلا ، الذى ذاق مرارة الحروب لاكثر من مائتى عام ، والذى فقد فى الحربين العالميتين .. الاولى والثانية .. اكثر من ثلث رجاله ونسائه ، والذى دمرت منازله ومصانعه مرتين خلال ربع قرن من الزمان ... هذا الشعب الذى تحمل من آثار الحروب المدمرة ما لم يتحمله شعب آخر فى هذا العالم .. هو اكثر شعوب العالم ـ حقيقة ـ احساسا باهمية وخطورة مبادرة السادات للسلام .

ولقد كانت الدموع تنهمر من عينى فى بعض الاحيان ، حينما كنت اجد موظفا فى فندق او عاملا فى مطعم ، او بائعة فى محل كبير او صغير .. تشيد باسم السادات ، عندما كانت تعرف اننى قادم من مصر ، وانتسب الى الشعب الذى يقوده بايمان واخلاص وجدارة .. انور السادات ..

وكم كنت اشعر بالسعادة البالغة ، عندما كنت ازور مصنعا كبيرا ، او مزرعة صغيرة ، فافاجا بكثير من العمال والفلاحين .. فى المصنع او فى المزرعة ، يهتفون باسم مصر ، وباسم السادات ، ومبادرة السادات للسلام ، عندما يعرفون ان مصريا ما ـ اى مصرى ـ يوجد بين ظهرانيهم .

وبعبارة موجزة ، استطيع ان اقول : اننى احسست بعد اربعة عشر يوما قضيتها فى المانيا شمالها وجنوبها ، شرقها وغربها .. ان مبادرة السادات للسلام قد محت كل اثر للدعاية الصهيونية فى المانيا وقد كان للدعاية الصهيونية اثرها الكبير على الشعب الالمانى ..

عرف الشعب الالمانى كله ، ان العرب يريدون السلام ، وانهم قد تقدموا فى سبيل تحقيق السلام بخطوات لم يكن احد يتوقع القيام بها ، او حتى يتخيل القيام بها .

واستطيع ان اقول ، وبضمير مستريح ، ان مبادرة الرئيس السادات للسلام .. لو لم تحقق الا هذا الهدف وحده ، وهو هز الضمير العالمى ، وتحويل الراى العام العالمى الى الجانب العربى ، لكان ذلك وحده كافيا للتدليل على ان المبادرة نجحت نجاحا كبيرا .

●

خلال الاربعة عشر يوما التى قضيتها فى المانيا ، وكل العالم يعرف مدى قوة النفوذ الصهيونى فيها ، احسست بان الغشاوة التى كانت قد وضعت على قلوب وعقول الشعب الالمانى، منذ هزيمته فى الحرب العالمية الثانية .. هذه الغشاوة التى كانت تجعل كل المانى ، اسير « عقدة ذنب » لم يرتكبه ، وتجعل كل المانى « عبدا » للفكر الصهيونى الذى لا يتيح له ان يفكر فى المصالح العاجلة للشعب الالمانى ، وانما يفكر دائما وبصورة قاطعة فى مصالح اسرائيل

لقد أدينا واجبنا تجاه قضية السلام وعلى العالم كله أن يبذل جهوده لإنقاذ السلام

والصهيونية ، ودفع الديون المفروضة على المانيا لاسرائيل ، ومحاولة « تكفير » ذنوب هتلر ، التى ارتكبها ضد اليهود ، ولم يرتكبها ابدا الشعب الالمانى .

القول ان هذه الفشاوة قد رفعت تماما لم يعد المواطن الالمانى يتخوف من اتهامه بمعاداة السامية ، لانه ينطق اية كلمة يمكن ان يفهم منها انها ضد اسرائيل .

لم يعد المواطن الالمانى ، يخشى ان يبدى رايه فيما تقوم به اسرائيل من ارهاب لا مثيل له ضد العرب فى المناطق التى تحتلها اسرائيل بقواتها .

لم يعد المواطن الالمانى يحذر « اللوبى » الصهيونى الذى كنت تجد له تاثيرا فى كل مصنع ، وفى كل متجر ، بل وفى كل صحيفة من الصحف الالمانية ، وكل مؤسسة من المؤسسات الاقتصادية الالمانية .. ما كبر منها ، وما صغر .

●

خلال الاربعة عشر يوما التى قضيتها فى المانيا الاتحادية .. لم اسمع ـ وقد التقيت بكثير من القيادات ذات الميول الصهيونية ، وذات الاتجاهات المعادية للعرب ـ لم اسمع اية كلمة دفاع عن حكومة اسرائيل ، او عن السياسة الاسرائيلية التى تتبناها حكومة بيجين . بل اننى فى بعض الاحيان كنت اجد ، قيادات ذات اتصالات قديمة بالصهيونية العالمية تهاجم حكومة بيجين ، وتعلن انه بسياسته التصفية هذه يضر الشعب اليهودى ، ان لم يكن يعمل بسياسته تلك على الايقاع به فى اخطر المواقف واصعب الظروف .

كل ما كان يقوله هؤلاء المتصدون باسرائيل وذوو العلاقات القديمة بالصهيونية والمتعاطفون معها .. كل ما كان يقوله هؤلاء .. تعليقا وتعقيبا على الاحداث السياسية الجارية اليوم « لا تتطلوا حبل الحديث عن السلام » .. و « لا تشتركوا فى واد هذا الوليد الصغير الذى ولد فى نوفمبر ١٩٧٧ فى مدينة السلام » .

كل ما كان يقوله هؤلاء .. « اعطوا الاسرائيليين فرصة اخرى لعلهم فيها يقلبون حكومتهم المتعنتة ، ويجيئون بحكومة اخرى جديدة يمكن ان تتقدم فى طريق السلام خطوات جديدة يمكن ان تساهم فى تحقيق السلام » .

واذكر انه فى لقائى مع مسئول كبير فى صحيفة المانية احتد النقاش واحتدم بصورة عنيفة كادت تنتهى بانهاء اللقاء .

كان المتحدث ، الصحفى ، قد وضع نفسه اسير فكرة معينة ، لم يكن يستطيع ابدا ان يتحول عنها . تلك الفكرة مؤداها انه ما دام الرئيس السادات قد قال فى الكنيست الاسرائيلى « لتكن حرب اكتوبر آخر الحروب » فيجب ان تكون فعلا حرب اكتوبر آخر الحروب فلما اوضحت له ان الرئيس السادات عندما قال « لتكن حرب اكتوبر آخر الحروب » لم يكن يعنى الا انها لن تكون آخر الحروب ، الا اذا تحقق السلام العادل ، والا اذا ردت حقوق الشعب الفلسطينى اليه ، وفى مقدمتها اقامة دولته .. والا اذا تم جلاء القوات الاسرائيلية عن الاراضى العربية التى احتلت فى عام ١٩٦٧ بما فيها مدينة القدس ..

اذكر ان هذا المتحدث ، الصحفى ، لم يقتنع بوجهة النظر تلك ، رغم وضوحها ، وكان يكرر باستمرار « انه ليس معنى امكانية تحقيق السلام ضرورة اشعال نيران الحرب » وكان يقول اننا هنا فى المانيا ، لا نضيق ذرعا بجيوش الاحتلال الفرنسية والامريكية والانجليزية ... بل اننا نطالب بوجودها ، وندفع ثمن نفقتها .

وحاولت اكثر من مرة ان اوضح له ، ان الاوضاع فى المانيا تختلف عن الاوضاع فى اسرائيل والبلدان العربية ، وان الحكومة الالمانية هى التى بادرت بالعدوان على النمسا فى عام ١٩٣٦ ، وهى التى قادت العالم الى تلك الحرب المدمرة التى كان يجب ان يدفع ثمنها الشعب الالمانى ككل .. هذا بينما نحن العرب لم نهاجم اسرائيل فى عام ١٩٦٧ ، ولم نحتل اراضيها ولم نرتكب فى حق الشعب الاسرائيلى الجرائم التى ارتكبتها حكومة هتلر خلال الحرب العالمية الثانية . كما ان الشعب الالمانى ، لم يطرد من ارضه . ولم تجىء عصابات من شتات الارض لتستولى على ارض الشعب الالمانى المطرود منها . ثم ان المانيا ليست فلسطين كما ان انجلترا وفرنسا وامريكا ليست اسرائيل !!

اذكر ان هذا الصحفى الذى اشتهر عنه معاداته للقضية العربية .. والذى حدثنى منه بعض الاخوة الاشقاء العرب ، القيمين فى « هامبورج » .. عندما وجد الابواب موصدة فى وجهه عند مناقشة القضايا السياسية الكبيرة ، حاول الدخول فى احاديث جانبية ، ليست بذات قيمة ، فاثار ، مثلا ـ وكان هذا موضوع استغراب من جانبى ـ موضوع الاستاذ هيكل

وقد انتهز هذا الصحفى الزميل الفرصة ، فاثار قضية الديمقراطية ، وهاجم الاجراءات الاخيرة التى اتخذت بحق بعض الزملاء من الصحفيين الذين كتبوا مقالات فى الخارج ، رات الجهات المسئولة ، ووفق كل الاعراف والقواعد القانونية ، ضرورة مساءلتهم عما تضمنته تلك المقالات من آراء وافكار .

وقد قلت للصحفى الالمانى الكبير ، ان مصر لم تتخذ اجراء استثنائيا واحدا ضد اى ابن من ابنائها . لم تصادر حرية فرد مصرى . لم تستول على ممتلكاته واموالة . لم تبعث به الى المعتقلات والسجون . وكل ما صدر من قوانين وقرارات واجراءات لحماية الجبهة الوطنية والسلام الاجتماعى .. انما صدر فى ظل القانون وباسم القانون . ومن الواضح انه من حق اية دولة فى العالم ان تفرض سلطتها باسم القانون وفى ظل القانون على اى فرد من افرادها ، كما ان واجب اية دولة فى العالم ان تحمى جبهتها الداخلية ، وان تحول دون نشوب معارك دموية يمكن ان يضار منها مستقبل الشعب وحاضره .

وقلت ، فيما قلته للصحفى الالمانى الكبير ، انتم هنا فى المانيا ، فاصدرتم قانونا يحرم ان يتولى اى يمينى او يسارى متطرف ، اى منصب حكومى بل انكم هنا فى المانيا قد وضعتم قانونا آخر يحرم على اى ماركسى لينينى ان يقوم بالتدريس فى اية مدرسة حكومية او اية جامعة حكومية . وقد فصلتم الكثيرين من الاساتذة والمدرسين من وظائفهم لانهم اعتنقوا الماركسية اللينينية . فلما لجاوا الى المحكمة الدستورية العليا ، ايدت المحكمة الدستورية العليا وجهة نظر الدولة ، ورفضت كل الدعاوى التى قدمت اليها من هؤلاء الاساتذة والمدرسين .

اننا اكثر منكم ديمقراطية .. لاننا لم نحرم على اى معتنق لفكر ماركس لينينى تولى كثير من الوظائف ، كل الذى فعلناه اننا حرمنا النشاط الماركسى اللينينى ، وفرقنا بين الفكر الذى يعتنقه المرء ، والذى لا يحرمه او لا يجرمه القانون .. وبين النشاط السياسى الذى يستهدف اثارة الطبقات .

وعاد الزميل الصحفى الكبير الى موضوع الاستاذ هيكل مرة اخرى وراح يدافع عنه دفاعا حارا . وقلت له : لو انك عدت الى ارشيف جريدتك الكبرى ، وهو ارشيف لا اشك انه حافل وخطير ، لوجدت به بعض المقالات التى كتبت فى جريدتك بالذات ، وقد تكون بتوقيعك انت تهاجم فيها الاستاذ هيكل وتتهمه باشنع التهم ..

وعاد الزميل الصحفى الكبير مرة اخرى الى اثارة موضوع هيكل مرة ثالثة .. وللمرة كدت اخرج عما عرفت به من هدوء ، فقلت له : من يكون هذا الاستاذ هيكل الذى تدافع عنه كل هذا الدفاع الحار .. خلال هذه الفترة الطويلة ، فى الوقت الذى لم تكتب فيه فى حياتك كلها كلمة واحدة تؤيد فيها الحق العربى ؟

انه ليس اكثر من صحفى من بين الفى صحفى مصرى .. وليس اكثر من مواطن مصرى من بين الاربعين مليون مصرى .

ولا اعتقد ابدا انه هو شخصيا يستطيع ان يقبل ان يخرج عن هذا الاطار المحدد ..

وانتهت المناقشة عند هذا الحد .

وقد كنت ارجو الا اتطرق الى هذه الزاوية الجانبية من الحديث .. لولا اننى اريد ان انتهز الفرصة لادخل فى موضوع آخر .. هو فى رايى من اخطر الموضوعات على الاطلاق .. واعنى به غياب تمثيلنا السياسى فى الخارج بصورة عامة، وفى المانيا بصورة خاصة .

اننى لم اجد ـ بكل اسف ـ اثرا للدبلوماسية المصرية ، بصورة خاصة ، والدبلوماسية العربية بصورة عامة فى كل انحاء المانيا .

تنشر بعض الصحف الالمانية بحسن قصد او بسوئه ، لست ادرى ، الكثير من الاخبار عن مصر ، وهى اخبار كلها ، او بعضها ، مفتراة ، ولا اساس لها من الصحة . وموقف الحكومة الالمانية الاتحادية المشجع للعرب فى الغالب ، والقريب الى مصر فى الواقع ، يعطى السفارة المصرية الحق فى ان تكذب هذه الاخبار ، بل اننى اعتقد ان كثيرا من هذه الصحف ، حتى بدون توجيه من الحكومة الالمانية او من وزارة خارجيتها ، سوف ترحب بنشر هذه التكذيبات . ولكن احدا .. من بعثاتنا الدبلوماسية .. لا يهتم ابدا بما ينشر فى الصحف الالمانية وبالتالى فهو لن يهتم بان يكذب منه ما يستحق التكذيب .

وخلال الاربعة عشر يوما التى قضيتها فى المانيا فى فرانكفورت ، بون ، هامبورج ، برلين ، شتتجارت ، ميونخ .. قابلت عشرات من الصحفيين الالمان الكبار والصغار . زرت كثيرا من دور الصحف الالمانية الصغيرة والكبيرة فى الكثير من العواصم الالمانية .. لم اجد ـ واقولها وبضمير مستريح ـ اى اثر لبعثاتنا الدبلوماسية فى بون .

وضعف بعثتنا الدبلوماسية فى بون ، يقودنى للكلام عن تمثيلنا الدبلوماسى فى الخارج بصفة عامة. وانا هنا اتوجه بالحديث الى السيد محمد ابراهيم كامل وزير الخارجية المصرية ، والذى اعتبره بحق ـ خلقا وسلوكا ووطنية ـ من خيرة من مثلوا مصر فى كينشاسا او فى بون او فى غيرهما من العواصم الاجنبية ، خير تمثيل .

ومحمد ابراهيم كامل فى رايى ـ وهذا الرأى ليس مبعثه اننا كنا معا فى سجن واحد ، هو سجن قره ميدان عام ١٩٤٧ وكان وقتئذ اصغر المسجونين سنا ـ وانما مبعثه ماسمعته عن محمد ابراهيم كامل فى المانيا، وفى غير المانيا . وما سمعته عنه من كثير من السفراء العرب والاجانب فى المانيا او فى غير المانيا .

يستطيع محمد ابراهيم كامل ان يقود ـ بما لديه من معرفة كاملة بتمثيلنا الدبلوماسى فى الخارج ، بعيوبه ونقائصه والثغرات الموجودة فيه ـ ثورة اصلاحية عاجلة وخطيرة فى مجال التمثيل السياسى فى الخارج

واقول ـ وبمنتهى الصراحة والوضوح ـ اننا يجب ان نغير تماما وجهة النظر الموجودة عند البعض منا فيما يتعلق بمدى اهمية منصب السفير ، او الوزير المفوض ، او حتى القائم بالاعمال .

ان هذا المنصب الدبلوماسى سواء كان فى عاصمة دولة من كبريات دول العالم او من صغرياتها .. هو من اخطر المناصب على الاطلاق واعتقد ان هذا المنصب يجب الا يتولاه الا الاكفاء المخلصون ، الى ابعد حدود الاخلاص ، لبلدهم ونظام حكمها . لا يجب بعد اليوم ان يكون منصب السفير هنا او هناك بمثابة ترضية لشخص ما .. او لابعاد شخص ما .. او على الاقل لمنح شخص ما فرصة الحصول على مغنم مالى ينقذ من ورطته المالية .

لقد ان الاوان ، بعد مأساتينا الدبلوماسيتين فى بلجراد ولشبونة .. ان نعيد النظر تماما فى كل منصب دبلوماسى فى الخارج ، وان ننظر اليه نظرة جديدة تماما ، تختلف اختلافا كبيرا عن نظرتنا فى الماضى .

واقول بمنتهى الصراحة والوضوح ، ان اى سفير ، او وزير مفوض ، او حتى قائم بالاعمال ، يخطىء خطأ صغيرا .. لا يجب ان يبقى فى مكانه دقيقة واحدة ، لان وزارة الخارجية ليست هى التى تدفع ثمن هذا الخطأ ، وانما مصر كلها ، بما فيها ومن فيها هى التى تدفع ثمن هذا الخطأ . وغالبا ما يكون الثمن غاليا .

وما اكثر ما شكونا من بعض سفراء ، يلقون محاضرات ، ويتحدثون الى شباب عربى فى لندن مثلا ، وما اكثر ما واجهنا هؤلاء بما كانوا يقولونه مسجلا على «كاسيتات» وكان كله يسىء الى سمعة مصر ، والى نظام الحكم المصرى ، وكانوا يقولون لنا انتظروا .. او اعطوه الفرصة لعله يعود الى صوابه . وما اكثر ما شكونا من سفراء ووزراء مفوضين وقائمين بالاعمال ، يتولون هم بانفسهم المتاجرة بالعملات الاجنبية فى البلاد التى يمثلون فيها بلدهم ، وهى عمليات محرمة قانونا .. ومع كثرة ما شكونا منه كشعب .. كان يقال لنا اصبروا عليهم لعل ضميرهم الوطنى يستيقظ فيعدلوا عن تلك التجارة المعيبة والمهينة المحرمة قانونا .

ولقد سئلت ذات يوم عن رايى فى بعض المآسى التى حدثت من بعض دبلوماسيينا فى الخارج .. فكان ردى انهم ليسوا هم المسئولون وحدهم عن هذه المآسى .. وان المسئولين الحقيقيين هم الذين ابقوا هؤلاء فى مناصبهم رغم ما بدر منهم من اخطاء وخطايا ومآس .

●

واعود الى ما سبق ان بدأت به مقالى ..

اعود لاقول ، اننا وقد كسبنا الرأى العام العالمى الى جانبنا ، ينبغى ان نغير بعض وجوهنا الدبلوماسية فى الخارج ، التى شوه وجودها صورتنا التى اشرقت بعد مبادرة الرئيس السادات للسلام .

ان شعوب العالم كله ، التى اهتز وجدانها وضميرها بمبادرة الرئيس السادات للسلام ، يجب ان تظل على تفهمها لقضيتنا، وعلى ادراكها لمسئوليتنا الجديدة . كما ان قوة دفع مبادرة الرئيس السادات للسلام فى الخارج يجب ان تزداد وتتضاعف لكى تؤدى الاثار الطيبة المرجوة منها .. من خلال صحافة واعية تعالج قضايانا الخارجية بعمق ، من خلال بعثات دبلوماسية مخلصة واعية ، مؤمنة بالخطوط الرئيسية للسياسة المصرية الوطنية القومية ، بل ومن خلال بعثات رسمية وشعبية نبعث بها بين حين وآخر الى بلدان العالم وشعوبه ، لنشرح قضيتنا ، ولنوضح وجهة نظرنا ، ولنحافظ على قوة دفع مبادرة السلام .

واقول فى النهاية ـ وبضمير مستريح ايضا ـ اننا قد ادينا واجبنا تجاه قضية السلام : فقد سرنا فى طريق السلام الى ابعد حد ممكن . قدمنا العروض التى تفيد قضية السلام العالمى .. ولن نستطيع باية حال من الاحوال ان نقدم اية عروض بعد تلك التى قدمناها .

لقد ادينا واجبنا تجاه قضية السلام كافضل واحسن واشجع ما يكون الاداء ، وعلى شعوب العالم كله ان تتحرك من جانبها لانقاذ قضية السلام فى الشرق الاوسط . فان قضية السلام فى الشرق الاوسط لم تعد ابدا قضية اقليمية تهم شعوب الشرق الاوسط وحدها .. وانما اصبحت قضية دولية كبرى يتعلق بها مصير العالم ككل .

لقد اعلنا على لسان قائد مسيرتنا انور السادات انه لا تنازل عن شبر واحد من الارض العربية ، وانه لا بد من جلاء القوات الاسرائيلية عن كل الاراضى التى احتلتها اسرائيل بعد عدوانها علينا فى ٥ يونيو ١٩٦٧ . وانه لابد من عودة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى بما فيها اقامة دولته على ارضه .. وعلى الجميع ـ عربا كانوا ام اسرائيليين ام امريكيين ـ ان يتفهموا هذه الحقيقة ، وان يعالجوا مشكلة الشرق الاوسط بناء على الحلول التى اقترحها الرئيس السادات : لقد ادينا واجبنا ويبقى على الاخرين ان يؤدوا واجبهم ايضا .

صبرى ابو المجد